

تاجر الظلال

حمادة حامد محمود نور الدين

في خان الخليلي، خلف مقهى الفيشاوي بثلاث حارات، دكّانٌ صغير لا يُرى إلّا إذا فقدتَ ظلّك.

اكتشفتُ ذلك يوم الخميس الذي عاد فيه أحمد من السجن. كان أحمد صديق طفولتي، رجلًا طويلًا نحيلًا يحمل في وجهه خمس سنواتٍ من الصمت، وحين خرج وقف في الشمس أمام بيته، وقال لي بصوتٍ مرتبك: «انظر إلى الأرض يا مجدي. أين ظلّي؟»

نظرتُ. الأرض ناصعة، تحت قدميه لا شيء. ظلّي أنا ممتدٌّ على الرصيف كالمعتاد. وظلّه هو غائب.

ضحكتُ من الدهشة ثم بردتُ فجأة. لأنّ أحمد كان يبكي، وكان يقول: «منذ خرجتُ من البوّابة ولا ظلّ لي. سرقوه، يا مجدي. أحدٌ سرق ظلّي».

لم يكن في ذلك الأسبوع حديثٌ في حارتنا إلّا عن غرائب الخان: ثلاثة أشخاص فقدوا ظلالهم وعادوا بعد أيّامٍ شاحبين لا يتكلّمون. قال أحدهم إنّه باعه. وقالت امرأة إنّها لم تفعل. وكان الجميع يهمسون باسمٍ واحد: «تاجر الظلال».

في تلك الليلة، رحنا معًا إلى الخان. كان الليل رطبًا، والأزقّة ضيّقة تتشابك فوقها المشربيات، وفتحاتُ الدكاكين تبدو كعيونٍ نائمة. مشينا حتى آخر الحارة الثالثة، حيث ينتهي الضوء ويبدأ ما لا اسم له. وهناك، بين بائع عطورٍ وصانع نحاس، وجدنا دكّانًا لم يكن هناك قبل لحظة.

بابه خشبيّ صغير، وعلى عتبته فانوسٌ يُصدر ضوءًا أزرق باردًا. ومن الداخل، رأينا مئاتِ الأوعية الزجاجية معلّقةً من السقف، وفي كلّ وعاءٍ شريطٌ أسود يتلوّى كدخانٍ سجين.

دخلنا. فتحنا الباب، ودقّ جرسٌ صغير. ومن خلف مكتبٍ مغطّى بالأوراق، رفع رجلٌ نحيل رأسه. وجهه جميلٌ بطريقةٍ مزعجة، كوجه تمثالٍ لم يعش، وعيناه بلا لون.

«أهلًا يا أحمد»، قال. «توقّعتُ أن تأتي مبكّرًا».

تجمّد أحمد. «أنت تعرفني؟»

«أعرف كلّ من لا ظلّ له. ظلّك عندي. هو بخير». أشار إلى وعاءٍ في الصفّ الأوّل، فرأيتُ الظلّ يتحرّك ويلوّح بيدٍ كأنّه يرحّب بصاحبه.

«لكنّه ليس مسروقًا، كما تظن. أنتَ بعتَه».

«أنا لم أبع شيئًا!»

«في السجن، في الليلة السابعة بعد المئة». ابتسم الرجل. «كنتَ مريضًا بالوحدة، وجاءك صوتٌ في الظلام قال: أعطني ظلّك وأعطيك ما تريد. وقلتَ: أريد أن أنسى. فنسيتَ».

شحب وجه أحمد. وفي ذلك الصمت الثقيل، شعرتُ أنّ شيئًا ما خلفي يتحرّك. التفتُّ، فرأيتُ ظلّي أنا يتمدّد على الأرض ويتّجه ببطءٍ نحو الأوعية، كأنّ أحدًا يسحبه بخيط.

«أبعدوا عنّي!»، صرختُ وقفزتُ إلى الخلف.

ضحك التاجر ضحكةً خفيفة. «لا تخف يا مجدي، لا أحتاج ظلّك الآن. ظلّك ما زال نظيفًا. يحتاجه صاحبه».

سألتُ بصوتٍ مخنوق: «لماذا تأخذ الظلال؟ ماذا تفعل بها؟»

اتّكأ على مكتبه، وبدا أنّه ينتظر هذا السؤال منذ زمن. «الظلّ ليس سوادًا يا صغيري. الظلّ هو الجزء الذي يتذكّر. كلّ ما فعلتَه وتمنّيتَ

ألّا تذكره، يختبئ فيه. حين يبيعني أحدهم ظلّه، يفقد ذاكرته المؤلمة، ويعيش بلا ثقلٍ على كتفيه. وأنا أحتفظ بالثقل».

«ولماذا يعودون شاحبين؟»

«لأنّ الإنسان بلا ظلٍّ ينسى الألم، لكنّه ينسى معه أيضًا كلّ ما أحبّ. ينسى أمّه، وطعم الخبز، وأسماء أولاده».

التفتَ إليّ التاجر فجأةً وقال بنبرةٍ ناعمة: «وأنتَ يا مجدي؟ ألا تريد أن تبيعني شيئًا؟ لا تقل لا. كلّنا نحمل ما نتمنّى نسيانه. تلك الليلة في المصنع، حين وقفتَ تتفرّج على زميلك وهو يُصاب ولم تتحرّك. ألا تحلم بها كلّ ليلة؟»

جفّ حلقي. لم يكن أحدٌ يعرف عن تلك الليلة. لا أحمد، ولا أمّي، ولا أحد. سبع سنواتٍ وأنا أجرّ ذلك الجبن كحجرٍ مربوط إلى قدمي.

«أعطني ظلّك الليلة»، همس التاجر، «وسأعطيك نومًا بلا أحلام. نومًا طويلًا ناعمًا كالحرير. لا تقلق، سأردّه إليك إن شئتَ... إذا تذكّرتَ لماذا بعتَه».

كانت الأوعية حولي تتمايل كأنّها تهمس: «افعلها، افعلها». ورأيتُ ظلّي يمتدّ على الأرض متردّدًا، يميل نحو الرجل.

لكنّ يد أحمد أمسكت بكتفي. لم يقل شيئًا. اكتفى بأن نظر إليّ نظرةً قصيرة، وأنا أعرف ما فيها: «أنا اخترتُ ثقلي. وأنت اختر ثقلك».

وسحبتُ ظلّي نحوي بقدمي، كمن يسحب كلبًا من رباطه، وقلتُ بصوتٍ بالكاد سمعتُه: «لا. هذا لي».

ابتسم التاجر بشيءٍ من الخيبة والإعجاب معًا.

رأيتُ في وجه أحمد شيئًا ينكسر. قال بهدوءٍ مخيف: «أريد ظلّي».

«ثمنه أن تتذكّر».

«أتذكّر ماذا؟»

مدّ التاجر يده إلى الوعاء، ورفعه إلى مستوى عينيّ أحمد. كان الظلّ بداخله يرتجف. «أن تتذكّر لماذا دخلتَ السجن».

سكتَ أحمد. ثم قال شيئًا لم أسمعه من قبل، شيئًا لم يبُح به لأحد منذ خمس سنوات.

«لأنّي ضربتُ رجلًا حتى فقد وعيه. دفاعًا عن أختي. ولم أكن أريد قتله. لكنّه مات في المستشفى بعد أسبوع».

انكسر صوته على الكلمة الأخيرة. ورأيتُ في عينيه ما لم أره في صغرنا حين كنّا نلعب الكرة: الحزن الصافي، الحزن الذي لا يتجمّل.

«أحمد...»

«لا تقل شيئًا يا مجدي». مسح وجهه بكمّه. «هذا ثقلي. أنا أستحقّه. وإن بعتُه فسأنسى أنّ لي أختًا تنتظرني. وأنّها لم تتخلَّ عنّي. لا أريد أن أنسى هذا».

ابتسم التاجر، وكانت أولى ابتساماته الحقيقيّة. أطلق الظلّ من الوعاء. دار الظلّ حول الغرفة كطيرٍ فرحان، ثم هبط على الأرض عند قدمي أحمد، وانسحب إلى مكانه كأنّه لم يغب يومًا.

«نجحتَ في الاختبار»، قال التاجر. «نادرٌ من يطلب ثقله برضاه».

«وماذا عن الآخرين؟ الثلاثة الذين اختفوا؟»

أشار إلى ركنٍ مظلم في الدكّان. وهناك، رأيتُ ثلاثة أشخاصٍ جالسين على مقاعد قديمة، عيونهم مفتوحة وبلا نظرة، كالدمى. «هؤلاء اختاروا النسيان. وقد نسوا أنفسهم. بقيَ جسدٌ يتنفّس. أبقيتُهم عندي لأنّ لا أحد يطالب بهم».

ولاحظتُ لأوّل مرّة أنّ الصمت في الدكّان ليس صمتًا عاديًّا. كان صمتًا مكتظًّا بأنفاسٍ كثيرة، كأنّ كلّ وعاءٍ على الجدران يحبس نفسًا. وفي الركن، تحت مصباحٍ ضعيف، دفترٌ ضخم مفتوح، أسماءٌ كثيرة بخطّ منمّق، وبجوار كلّ اسمٍ تاريخ وكلمة واحدة: «ثقيل»، «خفيف»، «لا يُحتمل». ورأيتُ اسم أحمد في السطر الأخير، وبجواره كلمة: «سيعود».

شعرتُ بغضبٍ ساخن يصعد إلى رأسي. «وأنت لا تردّ لهم ظلالهم؟»

«أردّها لمن يطلبها، يا مجدي. والذين ينسون لا يعرفون ما يطلبون».

وقفتُ لحظة. ثم نظرتُ إلى الثلاثة. اثنان منهم لا أعرفهما، والثالث وجهه مألوف. شاب في العشرين، له وشمٌ صغير على معصمه.

«هذا أخو جارتنا أمّ سلمى»، قلتُ بصوتٍ متهدّج. «اختفى قبل شهرين، وهي تبحث عنه في المستشفيات».

نظر التاجر إليّ طويلًا، ثم قال: «لن يخرج إلّا إذا جاءه من يذكّره. من يعرف اسمه وحكايته كاملة، ويقولها له بصوتٍ عالٍ، حتى يعود ظلّه من تلقاء نفسه. هذا شرطي».

لم أتردّد. جلستُ أمامه، وقلتُ كلّ ما أعرف عن أخي أمّ سلمى: اسمه سامح، يحبّ الشاي الثقيل، يرسم القطط على الجدران، وكان يتمنّى أن يصير مصوّرًا. وحين نطقتُ آخر كلمة، تحرّك الوعاء المعلّق فوق رأسه، وانسكب منه ظلّه الأسود على الأرض كما ينسكب الحبر.

رمش سامح مرّتين، ثم نظر إليّ وقال بدهشة: «من أنتَ؟ وأين أنا؟»

وخرجنا نحن الثلاثة من الدكّان قبل أن يفكّر التاجر في تغيير الاتفاق. في الشارع، كان القمر قد صعد، وكانت ظلالنا الثلاثة تمتدّ

على الحجارة القديمة جنبًا إلى جنب كأنّها تتعانق.

وحين التفتُّ لأنظر إلى الدكّان، لم أجده. لا باب ولا فانوس. فقط جدارٌ حجريّ قديم، وعلى الأرض عند أسفله وعاءٌ زجاجيّ صغير فارغ.

التقطتُه. كان دافئًا. وفي قاعه، بحروفٍ دقيقة، كُتبت جملةٌ واحدة: «الظلّ الذي يبقى وراءك... هو الشيء الوحيد الذي لا يستطيع أحدٌ شراءه منك، إلّا إذا أعطيتَه بيدك».

— النهاية —

حمادة حامد محمود نور الدين

https://dakkan-alhikayat.netlify.app